بهما جيداً، والمحافظة عليهما دائماً، جنباً الى جنب، كخطّي القطار، لن يكون في الامكان الوصول الى اي محطة، ولا تحقيق اي من اهداف النضال الفلسطيني.

لقد قطعت الحركة الفلسطينية شوطاً كبيراً للغاية على طريق العمل السياسي، باتجاه «العقلنة» والواقعية والاعتدال. وخلال العقدين الأخيرين فقط طرأت على تطلعاتها واهدافها تغيرات مهمة للغاية، لم يكن احد يفكر بها من قبل، بل لم تكن تخطر على بال، منذ راحت هذه الحركة تتبلور مع بداية العشرينات. فحتى بداية السبعينات، انطلقت «السياسة» الفلسطينية، على حد تعبير الميثاق الوطني الفلسطيني على الاقل، من ان «تقسيم فلسطين... وقيام اسرائيل باطل من اساسه»، وان «الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، وهو بذلك استراتيجية وليس تكتيكاً». غير انه لم يمر الا عقد ونيف من الزمن، وبعد المرور في محطتي السلطة الوطنية والدولة الفلسطينية المستقلة، حتى كان الفلسطينيون يتحدثون عن ان الكفاح المسلح هو احدى الطرق فقط لـ «النضال الفلسطيني»، وليس «تحرير فلسطين»؛ وراحوا يدرسون مشاريع السلم المقترحة، واحياناً يساهمون في تقديم الجديد منها، ويطالبون بمؤتمر دولي لحل ازمة المنطقة، ولا يتوقفون عن التحدث عن «سلام عادل». والواضح ان هذه «العقلنة» لم تهبط فجأة من لدنّه تعالى، بل جاءت، الى حد كبير، نتيجة تجارب مريرة ومستمرة، على ما تخللها من خيبات امل، ومؤامرات، ومخاطر، وتضحيات، وشهداء (كثيرين)، وضربات متلاحقة ـ وكثرة الضرب تعلم الرقص. ومن حيث المبدأ، لا اعتراض، كما يبدو، من معظم التيارات الفلسطينية على ذلك. بل ان هذه النغمات راحت تتكرر كثيراً خلال الآونة الاخيرة، بحيث كاد يبدو كأن منظمة التحرير الفلسطينية اصبحت عضواً في احدى حركات السلم العالمية، التي لا همّ لها الا التغني بمحاسن السلم عامة واطلاق الدعوات الى تحقيقه. الا ان تكرار هذه المواقف، من جهة، مرفقاً بـ «مرونة» دائمة، تكاد تصل حد العصر، من جهة اخرى، لا يفهم، عملياً، الا انه دليل على الضعف المسيطر على العمل الفلسطيني بأسره. بل ان هذا الواقع بات ممجوجاً.

التطرف سيد الاحكام

غنيّ عن القول ان هذا الضعف المتحكم في النشاط الفلسطيني عامة، ليس فيه ما يضفي اي مصداقية على المواقف السياسية الفلسطينية، المغلفة بالاعتدال والمرونة، عند التعامل مع كيان صهيوني كأسرائيل، يرفض الاعتراف بأبسط الحقوق الفلسطينية، ما لم يكن هنالك من عناصر القوة، بكافة ابعادها، الداعمة لهذه المواقف. وهنالك ما يكفي من الدلائل على ان العدو الصهيوني يدرك كنه هذا الواقع جيداً ويسخر من «اعتدال» القيادات الفلسطينية و «مرونتها»، الذي لا يراه، وعن حق، الا غلافاً شفافاً لضعفها وضعف حركتها الوطنية عامة، وهو ما لا «يخيفه»، وبالتالي لا يحمله على تقديم اي «تنازلات».

وليس هنالك من شك في ان الرفض الاسرائيلي للمطالب الفلسطينية جدّي، وصلب، وعميق، للغاية. ولا ينبع هذا الرفض من رد الفعل على الاوضاع الفلسطينية الضعيفة فقط، بل انه ينجم، أيضاً، عن تطورات وتفاعلات داخلية صهيونية عميقة، وشاملة، تدفع نحو المزيد من التصلب والرفض. وهذا الموقف الاسرائيلي، حسب تعابير القاموس السياسي الفلسطيني الاكثر تداولاً هو، بالتالي، «استراتيجية» وليس «تكتيكاً». ان المواقف العربية (والفلسطينية) السياسية عامة، في طروحاتها المختلفة لحل ازمة المنطقة، تكاد تقدم، بالنسبة الى اسرائيل، فرصة لا تعوض، لم تسنح كثيراً في الماضي، لايجاد حل ما يمكن ان يكون عادلاً ومقبولاً، للصراع العربي ـ الصهيوني؛ وهو ما لا يفترض باسرائيل ان تلقيه جانباً بخفة. ويقيناً انه لو تم اطلاع آباء الصهيونية، من امثال هرتسل